

العلماء ودورهم في مصر مطلع القرن التاسع عشر

عفاف لطفي السيد (*)

يمكن القول بأن المرحلة الذهبية لسلطة العلماء في مصر الحديثة هي الفترة الواقعة بين العقود الأخيرة من عصر المماليك وبداية إمساك محمد علي بزمام السلطة في مصر حيث وصلت فيها قوة العلماء السياسية إلى حدود لا سابق لها ثم هبطت بعدها إلى الحضيض. وسنحاول في هذه الدراسة أن نبين أن المرتبة السياسية التي وصل إليها العلماء جاءت نتيجة لبنية المجتمع الإسلامي وأنه عندما واجه هذا المجتمع التأثيرات الغربية تعرضت المكانة القوية لهؤلاء العلماء للاهتزاز.

لقد كانت السلطة في المجتمع الإسلامي التقليدي حكراً لمجموعتين من الناس، الأولى هم رجال السيف أي ذوو المناصب العسكرية، والثانية هم «رجال القلم» أي رجال الدين. اهتمت المجموعة الأولى بالشؤون الإدارية وحكم الدولة، أما المجموعة الثانية وهم القِيَمون على شؤون الدين فقد كانت لها السلطة على الحياة الاجتماعية والثقافية والقانون والتشريع. وكان رجال الدين هم المعلمون والمثقفون والقضاة والمفتين..

(*) Afaf Loutfi El Sayed, «The Role of the 'Ulama' in Egypt During the Early Nineteenth Century» in: P.M. Holt (ed.), *Political And Social Change in Modern Egypt*, (London: Oxford University Press, 1968) p.p. 264-280.

إن هذا التقسيم للمجتمع كان يعني أن هنالك مصدرين أساسيين للسلطة أحدهما يستمدّها من القوة الجبرية وهم العسكر والآخر يستمدّها من الروادع الأخلاقية والدينية ويتمثلون في العلماء، وكان على هاتين المجموعتين في دولة إسلامية تقليدية العمل على تنسيق جهودهما بشكل متناسق ومتكامل ووثيق. ولكن سرعان ما استخدم العسكر سلطتهم وقوتهم لإخضاع السلطة الدينية، هذه السلطة التي أدركت قبل القرن الثاني عشر الدرس القاسي «الضرورات تُبيح المحظورات»^(١)، وطورت تقليداً سنياً يقضي بالخضوع للسلطة القائمة عندما لا يكون أمامها بديل آخر. ومن هنا، فإن الحكام الأقوياء تمكنوا من استخدام العلماء لإضفاء الشرعية على أعمالهم وبسط نفوذهم وسيطرتهم على مجتمع تسوده التقاليد والأعراف الدينية^(٢).

وفي القرن الثامن عشر تضاعف دور السلطة العسكرية إذ أصبح لدى العلماء حصانة ضد تجرّب الحكام وطغيانهم نتيجة للتقاليد الإسلامية الراسخة التي أصبحت تحكم البلاد، وتمكّن العلماء من الإفصاح عن عدم ارتياحهم لطبقة الباشوات والبكوات^(٣)، وبالتالي من معارضة الحكام أنفسهم مُحَرِّزين نجاحاً معقولاً بل تمكنوا من الوقوف على رأس حركات المعارضة التي ظهرت حينذاك.

هذا هو الوضع الذي ساد المجتمع الإسلامي عندما كان بعيداً عن تأثير الأفكار الغربية كالمجتمع المصري في القرن الثامن عشر، ومنذ ذلك الوقت لعب العلماء دورهم كمنخبة مثقفة لها تأثيرها واحترامها، إلا أن التأثيرات الغربية سرعان ما لاحت في الأفق مؤدية إلى انحسار سلطة العلماء وإلى تجريدهم من معظم وظائفهم ما عدا الدينية منها إذ ظهرت طبقة جديدة من الموظفين العامين، والمحامين والصحافيين، الذين حلّوا محلّ العلماء كطليعة مثقفة تقود الرأي العام وتوجه حركة المعارضة الشعبية في وجه الحكام.

(١) ألغزالي، كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، (القاهرة: ١٣٢٠) ص ١٠٧

(٢) H.A.R. Gibb and H. Bowen, *Islam Society and the West*, (London, 1950, 1957), Vol.I, PT.II, p.110.

Ibid., p.111;

(٣)

وكذلك: الجبري، عجائب...، المجلد ٣، ص ٢٦٦.

مصر في عهد المماليك

أحرز العلماء مكانة خاصة في عصر المماليك نتيجة لطبيعة تركيب النظام السياسي السائد، ولما كان الحكام والمحكومون يشكّلان مجموعتين مختلفتين في اللغة والعرق فقد تولى العلماء مهمة سد هذه الثغرة الهامة فقد عملوا كوسطاء بين الطرفين^(١). وبالرغم من أنهم لعبوا دور المعارضة ضد حكم المماليك، إلا أن العلاقة كانت بين الطرفين سليمة بشكل عام بسبب التقليد السني بالخضوع للسلطة وكذلك كما يقول الجبرتي لأن المماليك نشأوا أصلاً في أحضان العلماء، تلقوا القرآن منهم ودرسوا الشريعة على أيديهم وأدوا فرائض الحج نتيجة لتعاليمهم^(٢)، مما أوجد داخلهم شعوراً بالتوقير مع تبجيلهم للحياة التقليدية. هذا بالإضافة إلى أن الكثير من العلماء كانوا يدينون بالمعروف للمماليك فقد اعتمد بعضهم على مساعدة المماليك السخية وتبادل بعض العلماء الزيارات مع المماليك المهتمين بشؤون الدين والثقافة وتصاهروا معهم، بل إن بعض العلماء الأثرياء كان له مماليكه الخاصين وقد تعاون الطرفان وأصبح العلماء هم القوة المؤثرة الوحيدة على المماليك. وكانوا كثيراً ما يتوسطون بين المماليك أنفسهم عند نشوب أي نزاع داخلي بينهم بناءً على طلب المماليك أنفسهم. كذلك في أوقات الأزمات كان المماليك يطلبون من العلماء التوسط إلى الله بواسطة صلواتهم أو قراءتهم لصحيح البخاري، أو استخدام نفوذهم الروحي لدى الناس من أجل تهدئتهم في حالات الاضطراب التي تهدد سلطانهم.

لقد كان هذا التأثير الذي حظي به العلماء على الشعب المصدر الأساسي لقوتهم حيث إن الدولة العثمانية كانت تزيد من عدائها للمماليك كلما انحسرت سلطتهم وبرز تحرك الناس ضدهم، والعلماء فقط كانوا قادرين على تهدئة الناس دون استعراض للقوة. وقد صوّر الجبرتي ما جرى عام ١٧٨٥ عندما طلب إبراهيم بك (وكان أمير الحج حينذاك) من العلماء وخاصة الشيخ البكري

Ibid., Vol.I, p.187.

(١)

Ibid., Vol.IV, p.49.

(٢)

والشيخ العروسي والشيخ الدردير متوسلاً إليهم ومستعظفاً^(١) «تصاغر في نفسه» أن يساعده على تهدئة الناس حفظاً للأمن وتجنباً لتدخل الباب العالي. وهكذا، فإن احترام المماليك للعلماء واعتمادهم عليهم كان ينبثق من قوة هؤلاء على ضبط الشعب أو إثارته، وهذا الدور المزدوج كان مصدر قوة العلماء السياسية في مصر وكان الناس بدورهم يُجَلُّون العلماء ويثقون بهم، ويشعرون بقرينهم منهم أكثر من المماليك الناطقين بالتركية. ويورد الجبرتي حالات كثيرة طلب المماليك فيها من العلماء ترجمة كلماتهم (لأننا لا نعرف التركية)^(٢) رغم أن العديد من العلماء كانوا يتكلمون التركية وبعض المماليك يتكلم العربية، لقد جاء العلماء من بين صفوف الشعب وكانوا يوجدون دائماً بين الناس، فهم أولاد بلد حقيقيون أكثر من المماليك، وبسبب تدين الناس وإيمانهم بالغيبات فقد اعتقدوا بقدرة العلماء على منح البركات أو على أقل تقدير وجدوا في معرفتهم بالقرآن شيئاً من القدسية فهم جديرون بالاحترام والتبجيل^(٣)، وكان العلماء يعتبرون أنفسهم «خلاصة خاصات الله في خلقه» بفضل كلمة الحق التي يعملون على نشرها^(٤).

وقد كان تأثير العلماء في المناطق الريفية كبيراً لأن شيخ القرية كان يقوم بدور القاضي، والمفتي وصانع السلام، ومع ذلك كان الفلاحون كثيراً ما يلجأون للعلماء عندما تكون الضرائب التي يفرضها المماليك فوق طاقتهم مع أنهم لم يشكلوا كتلة قوية كما كان الحال عليه لدى العلماء من أهل المدينة.

ومن المعروف أن تجار القاهرة وحرفييها كانوا ينتظمون في طوائف واتحادات عالية التنظيم، على رأس كل منها شيخ قادر على فرض الغرامات والعقوبات على أفراد طائفته، وكانت هذه التجمعات على علاقة متينة بالعلماء وبزعماء

(١) الجبرتي، عجائب، ...، المجلد ٢، ص ١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٣) E.W. Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, (Everyman edn.), p.p. 218-19.

وكذلك: الجبرتي، عجائب، ...، المجلد ٤، ص ١٩٢.

(٤) خليل شهاب، عبد الرحمن الجبرتي، (القاهرة: ١٩٤٨) ص ٢٨.

الطرق الصوفية^(١). ويقال إن بعض الطوائف كان يُمارس مهنته في فناء المسجد^(٢) وكان الصبيان من مختلف المهن ينالون إجازاتهم كمعلمين في احتفال ديني^(٣)، وكان شيوخ هذه التجمعات كثيراً ما يلتقون بالعلماء وغالباً ما يطلب هؤلاء مساعدة شيوخ الطوائف في شؤون أعمالهم. فمثلاً كان والد الجبرتي نفسه قد ساعد في تصحيح الأوزان والمقاييس^(٤) وكان خبيراً في زخرفة الرخام، كما كان الكثير من أعضاء تلك الطوائف أعضاء في الطرق الصوفية جنباً إلى جنب مع العلماء، إذ كان الأزهر منذ القرن السادس عشر قد أصبح مركزاً للتجمعات الصوفية^(٥). وهكذا، كانت العلاقة بين المجموعات الثلاث (العلماء والطوائف المهنية والجماعات الصوفية) واضحة وكان يبدو واضحاً أن العلماء قادرون على تحريك مجموعات ضخمة من جماهير الطرفين الآخرين خصوصاً وأن الأزهر يتوسط المركز التجاري في المدينة أي «القصة». وفي حال الطوارئ كانت شارة الخطر عبارة عن طبول تُقرع على المآذن في الأزهر فيسمعها معظم الناس الذين يسارعون إلى إغلاق بوابات المسجد وبوابات الأسواق والمنافذ الرئيسية ويتجمعون أمام الأزهر لانتظار وصول العلماء وتعليماتهم. وكان هذا صوت الرأي العام الذي كثيراً ما يخرج عن إطار السيطرة ويتحول إلى حركة غوغاء أو إلى نواة قوة منظمة وحركة مقاومة شعبية كما حدث إبان الاحتلال الفرنسي. ومن خلال هذه الجماهير تمكن العلماء من تغيير سلطة المماليك وتمكنت الجماهير من خلال العلماء من إسماع صوتها للحكام.

ولكن من هم العلماء الأكثر قوة وتأثيراً في مصر؟

أولاً كانوا هم العلماء الذين تولّوا المراكز الرسمية ضمن البنية الدينية مثل

G. Baer, *Egyptian Guilds in Modern Times*, (Jerusalem, 1964), p.p.6-11. (١)

Ibrahim Salama, *L'Enseignement Islamique en Egypte*, (Cairo, 1939), p.217. (٢)

Also: M. de Chabrol, «Essai sur les mœurs des habitants modernes de l'Egypte», *Description de l'Egypte: Etat moderne*, Vol.II, p.379.

الجبرتي، عجائب...، المجلد ٢، ص ٢١٤ - ٢١٥. (٣)

المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٣٩٩. (٤)

Salama, *op.cit.*, p.130. (٥)

شيخ الأزهر، والمفتين الأربعة للمذاهب السنية، ونقيب الأشراف^(١). ثم يليهم شيخاً أهم طريقتين صوفيتين وهما الشيخ البكري والشيخ السادات وكلاهما كان من نسب النبي وأبي بكر وقد نالا لقبيهما بالوراثة ولهما حق توريثهما لأعضاء من بين أفراد أسرتهما من بعدهما. وقد جرت العادة أيضاً منذ القرن الحادي عشر للهجرة أن يكون الشيخ البكري منسقاً للجماعات الصوفية في البلاد^(٢) وهذا يعني أنه كان يقود تلك الجماعات أيام الاحتفالات وكانت له يد طويلة في اختيار شيخ الأزهر^(٣). أما الشيخ السادات فكان على رأس جماعة «الوفاء» ونازع الشيخ البكري الحق في تولي مهمة نقابة الأشراف وكان المنافس الرئيسي له. وقد وصف شهرة هذين الشيخين إثنان من معاصريهما، الأول أحمد باشا الجزار الذي قال فيهما: وكان فضيلة الشيخ البكري... الذي لديه كثير من الأقارب والأتباع والعائدات، كان كل العلماء وزعماء التجار يقبلون يديه ويبجلونه. يليه في المنزلة فضيلة الشيخ السادات الذي يتمتع بكل المزايا السابقة أيضاً وقد تبع هذين الرجلين كافة علماء الأزهر وكل فقراء المدينة، بالإضافة إلى كل تجار شمال أفريقيا - ولم يجروا أحد على مخالفة تعاليمهما، وباختصار كان لهما القدرة على جمع قوة شعبية مسلحة تتكون من سبعين إلى ثمانين ألف رجل مسلح على ولاء تام لهما خلال يوم واحد^(٤).

ويؤيد الجبرتي أقوال الجزار هذه، ويضيف أنه كان لدى الشيخ السادات

(١) كان يتم تعيين القاضي من قبل الباب العالي ولا يعتبر ضمن العلماء، وكان التعيين يتم سنوياً، ولذلك لم يكن بإمكانه جمع عدد من الأتباع في تلك المدة القصيرة، وكان دوره صغيراً، وبينما كان نقيب الأشراف في بعض البلاد الإسلامية الأخرى من الشخصيات المهمة، لم تكن له الأهمية نفسها في مصر، ولكن وضع الشيخين البكري والسادات على رأس نقابة الأشراف - وكانا يتمتعان بقوة نفوذ استثنائية - أعطى أهمية كبرى لهذا المنصب، خاصة عندما تولاه فيما بعد السيد عمر مكرم.

(٢) محمد توفيق البكري، بيت البكري، (القاهرة، ١٩٠٥) ص ٣٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

Chabrol, op.cit., p.394

وكذلك:

(٤) Stanford J.Show, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century (Cambridge, Mass, 1962), p.p.22-23.

عدد من الموظفين الذين يعملون له مجاناً حيث اعتقدوا أن تلقيهم أي أجر مقابل عملهم يُعدّ من الكبائر^(١). لقد عامله الجميع - أمراء وشيوخ - بالاحترام والتبجيل حتى أن خطيب المسجد يُعد خطبة ترحيب خصيصاً للشيخ توقعاً لدخوله المسجد، ويقول الجبرتي إنه سمع أحد الناس يعلق على ذلك بقوله، إنه لم يبق إلا أن يقول الخطيب: أركعوا وانحنوا واعبدوا الشيخ السادات^(٢). وأصبح منزله أشبه بمنزل قائد الشرطة يخافه البعض ويلجأ إليه البعض الآخر طلباً للحماية^(٣). ولقد استمد الشيخان سلطتيهما على الناس من منصبيهما كقائدين صوفيين وكانت تحيط بكل منهما هالة الأشراف - وكانا على درجة كبيرة من الغنى الناتج من توليها نظارة عدد كبير من ممتلكات الأوقاف - فضلاً عن ما يمتلكانه من ثروة شخصية^(٤). وكانا يقيان الموالد بسخاء ويحضرها عدد كبير من المقتدرين وكبار الأعيان، وقد اعتاد البكريون - نسبة إلى البكري - الاحتفال بالمولد النبوي فيما يحجي الساداتيون مولد سيدنا الحسين - وفضلاً عن هذه الامتيازات كانت قوتها تزدد وشهرتها تتسع وبالتالي نفوذها السياسي، ويمكن القول إن هذين الرجلين كانا على علاقة بمعظم الأحداث السياسية التي حدثت في مصر عبر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر.

أما بالنسبة لإمام الأزهر - فقد كان على رأس العلماء الرسميين الذين كانوا ينتخبونه للمنصب بموافقة الحاكم. وكان اختلاف العلماء على انتخاب أحد الأئمة مأزقاً تقع فيه البلاد، وقد حدث مثل هذا الأمر مرّة واستمرت الأزمة لسبعة شهور^(٥). أما نفوذ شيخ الأزهر فكان يكمن في أهمية منصبه، ولكن طبيعة تأثيره كانت تعتمد على شخصيته الخاصة وكان الشيخ الشرقاوي (١٦٩٣ - ١٨١٢) واحداً من أشهر الأئمة الأزهريين وأقواهم. إذ كان جريئاً قادراً على الإمساك بزمام المبادرة في الأوقات العصيبة - ومن تلك الأوقات - ما حدث عام

(١) الجبرتي، عجائب...، المجلد ٤، ص ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٥) وهذا ما حدث في حالي العريشي والعروسي سنة ١٧٧٧.

١٧٩٤ عندما قدم له ملتزمو بلبس طلباً بالمساعدة على إلغاء ضريبة كانت قد فرضت عليهم - فقام الشيخ الشرقاوي بجمع العلماء - وأغلق أبواب الأزهر واستنفر العامة وتوجه إلى منزل الشيخ السادات حيث ناقشه العلماء شكوى أهالي بلبس - وطلبوا من «الدفتدار» تطبيق العدالة وإنهاء الاستبداد - والعودة إلى حكم الشريعة وإلغاء كافة الضرائب المستجدة^(١). استمرت تلك الأزمة ثلاثة أيام تزايد فيها عدد الأهالي المجتمعين بينما عزز المماليك من أسلحتهم، وفي النهاية التقى الجميع في بيت الباشا «الحاكم» حيث رفع القاضي عريضة وقّع عليها البكوات متعهدين بعدم فرض ضرائب جديدة والالتزام بالعدل. وهذه الحادثة مثال على قدرة العلماء على تحريك جماهير الشعب وعلى إملاء ما يريدون على المماليك، ولكن لسوء حظهم لم يحافظ المماليك على عهدهم وسرعان ما عادوا إلى ممارساتهم السابقة.

المنصب الرسمي الثاني من حيث الأهمية هو منصب نقيب الأشراف وكان من نصيب أحد الشخصين البكري أو السادات - ولكن منذ ١٧٩٣ - ١٨٠٩ - أي في غضون فترة الاحتلال الفرنسي احتل هذا المنصب الشيخ عمر مكرم ولا يعرف سوى القليل عن ماضي هذا الشيخ وحسبه ونسبه الذي يؤهله لهذا المنصب، إلا أن بروزه بين الأشراف كان بعد أدائه الحج في سنتي ١٢١٠ هـ/ ١٧٩٥ - ١٧٩٦ و١٢٣٥ هـ/ ١٨٩٩ - ١٨٢٠، لقد تحدث عنه الجبرتي كشخصية كبيرة برزت عندما توسط لدى العثمانيين لعودة إبراهيم ومراد إلى سلطاتهما وكوفىء على ذلك بتعيينه في ذلك المنصب بعد وفاة النقيب السابق «الشيخ البكري».

وقد اشتهر الشيخ عمر مكرم كرجل سلطة وتدبير مع قدر من حب المغامرة - وقد غادر البلاد إبان الاحتلال الفرنسي حيث أمضى سنوات متنقلاً بين غزة وعكا وعندما عاد إلى مصر تورط في الثورة والانقلاب كما سنرى لاحقاً.

لم يكن هؤلاء الشيوخ وحدهم من العلماء القادرين على إمساك زمام

(١) الجبرتي، عجائب...، المجلد ٢، ص ٢٥٨.

الأمر، فهناك أيضاً من هم أدنى مرتبة دينية من العلماء الآخرين القادرين على تحريك الجماهير، مثلاً الشيخ الدردير، المفتي المالكي اقترح مرة على الجماهير، إثر قيام حسين بك - من الماليك - بنهب منزل رأس جماعة البيومي الصوفية، اقترح القيام بنهب بيوت الماليك إما النصر وإما الشهادة^(١). وقد أمسك عن تنفيذ ما انتوى بعد تدخل أغا الإنكشارية، ومما يثير الاهتمام ما ذكر عن تأنيب ابراهيم بك لحسين بك على فعلته، فعلق الأخير على ذلك بقوله «إننا جميعاً نهابون، أنت نهاب، ومراد بك نهاب، وكذلك أنا أيضاً»، مما يلقي الضوء على صورة الماليك عن أنفسهم.

من خلال هذه الأمثلة يمكن إدراك الضغط الذي كان بإمكان العلماء ممارسته على الوضع السياسي في عهد الماليك وبذلك يحق لنا اعتبارهم القادة الشعبيين للبلاد بخلاف الحكام الرسميين، هذه القيادة الشعبية كانت تسيّرهما تقاليد الخضوع للسلطة وحاجتها إلى قوة فاعلة في صفوف الشعب، وبالرغم من قوتها، كانت عاجزة عن مواجهة الماليك المسلحين لمدة طويلة، وهكذا كان العلماء مهددين بالقوة المسلحة، فلم يستطيعوا سوى التظاهر ضد الماليك، فمثلاً عندما طلب منهم كابر دان باشا الثورة ضد حكاهم رفضوا وقالوا «إن الأمراء يمثلون جبهة قوية ونحن عاجزون لأن استبداد الأمراء أضعف الجماهير^(٢)»، وفي الوقت ذاته لم يكن هناك أي شعور بالموالاة للماليك الذين تناقضت مصالحهم مع مصالح الجماهير^(٣).

إذاً بقي دور العلماء في هذه الفترة مقتصرًا على الدفاع والتوسط، حيث لم يكن هناك بديل أفضل من حكم الماليك. وبالرغم من شكواهم المريعة، لم يكن هناك أي حوافز لتغيير هذا الحكم. ولكن الهجوم الفرنسي سرعان ما زودهم بالبديل عن الماليك وبالحوافز اللازمة للعمل.

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٣) المصدر نفسه.

الحملة الفرنسية ونتائجها

تمكنت حملة نابليون من القضاء على حكم المماليك لعدة سنوات في بعض أنحاء البلاد وعندما عزل نابليون الطبقة التقليدية الحاكمة عن السلطة كان عليه إيجاد بديل محلي للتعاون معه في حكم البلاد، وهذا البديل كان بلا شك طبقة العلماء، النخبة الأخرى الوحيدة في البلاد. وعليه، فقد شارك العلماء في تشكيل ديوان بوناپرت للمساعدة في التشريع وحفظ الأمن، والعمل كوسيط بينه وبين الشعب.

ولا يعني هذا أنه عشية تشكيل ذلك الديوان أصبح العلماء هم حكام مصر الجدد، ولم يكن هذا هو هدف الفرنسيين في الواقع، ولكنها كانت المرة الأولى التي أظهرت فيها القوة الحاكمة رغبتها في مشورة العلماء كممثلين للرغبة الشعبية والرأي العام.

وبالرغم من أن المماليك أقاموا كذلك هيئة ديوان شارك فيها العلماء أيضاً إلا أن ذلك الديوان لم يكن يقصد به مشاركة الأعيان المصريين في عملية الحكم^(١) كما قصد نابليون عند إنشاء ديوانه، وهكذا، بهزيمة المماليك، الذين طالما شعر العلماء بالمرارة تجاههم ولا موهم على ما انتهى إليه الأمر من احتلال^(٢)، بدأوا يشعرون - وكذلك شعر الناس - بأنهم يتبوؤون مركزاً أكبر في السلطة عن ذي قبل.

لقد كان لاختيار نابليون ممارسة الحكم عبر العلماء أسباب بيّنها في إحدى مذكراته:

«لقد فضلت العلماء وخبراء القانون لعدة أسباب:

أولاً، لأنهم القادة الطبيعيون... ثانياً، لأنهم الذين يفهمون القرآن جيداً

(١) Napoleon, Correspondance (Paris, 1860), Vol.V, no.3423.

(٢)

اتهم الشيخ السادات المماليك بأنهم سبب الاحتلال الفرنسي بسبب تصرفاتهم غير المسؤولة.

أنظر: الجبرتي، عجائب...، المجلد ٤، ص ١٩٢.

وهو العقبة الكبرى التي تواجهنا وستواجهنا في التعامل مع الأفكار الدينية... وثالثاً، لأن هؤلاء العلماء لديهم أخلاق جيدة، ويحبون العدالة، وأغنياء، ويتحلون بمبادئ أخلاقية راقية وهم لا يعتمدون المناورة العسكرية وغير متفاعلين مع الحركات المسلحة»^(١).

ولكن لأنهم القادة الحقيقيون والدينون، ولأن الفرنسيين كانوا غير مسلمين، فقد اضطر العلماء إلى اعتماد الحل العسكري، وقد فعلوا ذلك في ثلاث مناسبات مختلفة خلال سبع سنوات. الأولى في تشرين الأول (أكتوبر ١٧٩٨ م) وهي عبارة عن ثورة مجهضة قادها شيخ رواق المكفوفين في الأزهر الذي تم إعدامه مع بعض العلماء الآخرين. والثانية في آذار (مارس ١٨٠٠ م) وهي عبارة عن عملية اشتركت فيها القوات العثمانية والمماليك، والجهالير المصرية بقيادة عمر مكرم. والثالثة في عام ١٨٠٥ م وهي التي جاءت بمحمد علي إلى سدة الحكم في مصر.

باستثناء عمر مكرم كان العلماء المشاركون في هذه القوات هم الشيخ السادات الذي اتهمه نابليون بتنظيم الثورة الأولى مع أن الجبرتي برّاه من ذلك، ولم تتم معاقبته خوفاً من ردة الفعل الجماهيرية، ولكنه اتهم في الثورة الثانية وتم تغريمه وسجنه وتعذيبه على أيدي الفرنسيين^(٢). وأدى ذلك إلى زيادة شهرته بين الناس وإلى انخفاض شعبية الشيخ البكري الذي هادن الفرنسيين، وعندما انسحب الفرنسيون من مصر تم إبعاد البكري وجماعته الدينية وقُتلت ابنته بتهمة التعامل مع الفرنسيين^(٣).

كان تأثير الاحتلال الفرنسي على العلماء إذن، هو ارتفاع شأنهم ووضعهم في مواقع القادة الحقيقيين للشعب بالرغم من عدم كفاءتهم في ممارسة العمل العسكري. لقد مارسوا دورهم الذي لعبوه من قبل خلال حكم المماليك ولكن

(١) C. de la Janquière, *L'expédition de l'Égypte (1798-1801)*, (Paris, 1899-1907), Vol.V, p.597. Translation quoted from F. Charles-Raux (tr. E.W. Diches), *Bonaparte: Governor of Egypt* (London: 1937) p.p.353-4.

(٢) الجبرتي، عجائب...، المجلد ٣، ص ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٢.

خضوعهم للسلطة الفرنسية كان كرهاً عنهم وليس قبولاً اختيارياً للتعامل، لقد أصبحوا مجموعة حاكمة رسمياً حيث كانت كافة الأوامر تصدر للشعب عبر الديوان ويصدق عليها العلماء بالرغم من كونها من إعداد الفرنسيين وتنفيذهم.

ومع الجلاء الفرنسي وعودة العثمانيين والمماليك الى التنافس على الحكم، عاد العلماء إلى وظائفهم الأساسية تاركين الأطراف العسكرية تتنافر فيما بينها وكانت النتيجة أربع سنوات من الفوضى والتزف الدموي.

خلال هذه السنوات ضعفت الحلقة الرابطة بين المماليك والعلماء، وفيما كان المماليك مازالوا يثقون بالعلماء فقط عندما يتحادثون عن منافسيهم، كان العلماء والناس يدركون مقدار ضعف المماليك وعدم قدرتهم على توفير الحماية لهم من بطش الفرنسيين أو العثمانيين. ومع فقدان القوة العسكرية جاء فقدان الاحترام، ويصف شاهد مُعاصر يدعى نقولا الترك ما آلت إليه الأوضاع بتصويره لحادثة وقعت في عام ١٨٠٣ م حيث تمكن الشيخ العروسي من إحضار ابراهيم باشا إلى وسط الديوان قائلاً:

«الله يستجيب لصلواتكم، لأن الطغيان والظلم والفساد عم أرجاء البلاد. وحكامنا ليسوا مسلمين حقاً، ولو كانوا مؤمنين صادقين ومحبين للعدل والصدق، لألغوا الضرائب الباهظة، والمساهمات غير المشروعة، وامتنعوا عن أخذ الإتاوات الاعتبائية، ولطمأنوا الناس وعلموهم النوايا الطاهرة، وأعادوا بناء الوطن، وزرعوا الثقة في النفوس، ولكن ماذا نرى؟ نقيض ما يقتضيه العدل، ففي ظل حكمهم تنتشر الاضطرابات، وتزداد الابتزازات، وترتكب الرذائل في وضح النهار، وينهب الجنود والمماليك ليلاً ونهاراً، ويضربون الناس ويقتلونهم دون خوف من رئيس أو رادع»^(١).

وأنهى نقولا الترك تقييمه لتلك الحادثة بقوله:

(١) Nicolas Turc (ed. and cr. G. Ziet), *Chronique d'Egypte: 1798-1804*, (Cairo: 1950), p.p.193-4.

«وعلى هذا النحو انفض الديوان الذي دعا ابراهيم بك لعقده»^(١).

لم يكن الوضع السياسي وحده في حالة من الفوضى، بل استمر الوضع الاقتصادي أيضاً في التدهور إلى حد أن الناس بكوا أمام عثمان البرديسي رئيس زمرة مراد، ورفعوا شعارات مثل «إيش تاخذ من تفليسي با برديسي» وبينما الوضع كذلك أخبر محمد علي الناس والعلماء بأنه ليس عليهم دفع مثل تلك الضرائب الباهظة، التي كانت نتيجة الإدارة السيئة، وبذلك أوحى إليهم أنه قادر على فعل الأفضل وتولي المسؤولية.

وصلت الأمور إلى ذروتها عندما عاثت قوات الوالي العثماني في شوارع المدينة فساداً إلى درجة إهانة الناس الذين أغلقوا البازارات والمتاجر وأبواب المساجد ووضعوا أنفسهم في وضع هجومي منتظرين إشارة من شيوخهم^(٢).

اجتمع العلماء الذين ضاقوا بتلك الفوضى في بيت الشيخ الشرقاوي لتحديد العمل الواجب القيام به وتصاعد الموقف إلى حد العداء السافر للعثمانيين حيث طاف الناس في الشوارع مرددين «يا ربي يا متجلي إهلك العثملي»^(٣) وبينما كان العلماء مجتمعين استدعى محمد علي السيد عمر مكرم واجتمع به سراً واعدأ إياه بعدم اتخاذ أي عمل دون استشارة العلماء إذا هم اختاروه والياً جديداً على مصر^(٤). كان الوضع كما كان عليه في الثورات البدائية السابقة حيث يحاول الحكام دائماً الحصول على رضى العلماء قبل حسمهم للسلطة، وهكذا تصرف محمد علي تقليدياً والفرق الوحيد كان في رد فعل العلماء أنفسهم.

(١) والجبرتي في، عجائب، المجلد ٣، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ يختلف عن ذلك قليلاً، فيقول ان العلماء اقترحوا القيام بصلاة خاصة هي صلاة الاستسقاء، وقالوا لابراهيم، أنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد وقف الضرائب الجديدة وعودة الاستقرار، وأجابهم أنه لا يستطيع شيئاً، لأنه لا يملك تأثيراً على أي شخص، فأجابوه أنهم سيهاجرون من مصر، فقال لهم أنه أيضاً سيفعل ذلك.

(٢) Georges Douin, Mohamed Ali: Pacha du Caire: 1805-1807, (Cairo, 1926), no.21.

(٣) الجبرتي: عجائب...، المجلد ٣، ص ٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٣٢.

وفي نهاية مشاوراتهم، رفع العلماء لائحة شكوايهم إلى الوالي وعندما رفض الاستجابة لهم عادوا إلى محمد علي وقالوا إنهم لا يريدون أن يستمر ذلك الوالي في حكمهم ويجب خلعه، وسأل محمد علي عمن سيضعون مكانه في السلطة فردوا قائلين لن نقبل إلا بك والياً علينا وحسب شروطنا لما رأينا من تصرفاتك العادلة^(١). ثم ألبسه الشيخ الشرقاوي العباءة كتكريس رسمي. وكان هذا بمثابة الانقلاب الذي سرعان ما تحوّل إلى ثورة مسلحة عندما رفض الوالي العزل على يد «الفلاحين». استنفر العلماء الناس للتحضير للهجوم ونظموا مجموعات المقاومة وكان المحرك الرئيسي للثورة هو عمر مكرم بمساعدة باقي العلماء^(٢).

عندما وجد الوالي نفسه محاصراً في القلعة، بعث رسولاً إلى عمر مكرم طالباً توضيح ما يجري، وتساءل عن عدم إطاعة العلماء لمن هم في موقع المسؤولية فوقهم أي الوالي، وكان جواب عمر مكرم هو التالي: «ان من هم في موقع المسؤولية هم العلماء وأتباع الشريعة والسلطان الشرعي، ولكن الوالي رجل مستبد، وهناك تقليد تقديم بأن أهل البلد لهم أن يخلعوا الوالي إذا كان ظالماً»، ثم سأل الرسول «هل نحن كفار لمعاملتنا بهذه القسوة؟» فأجاب مكرم: نعم إن العلماء أصدروا فتوى تبيح قتالكم لأنكم عصاة^(٣).

إن هذا الحوار القصير الذي أورده الجبرتي يُلقي معظم الضوء على الموقف الجديد الذي اتخذته العلماء. لقد عزلوا الوالي العثماني استجابة لرغبة أهل البلد، وهذه بادرة لم يسبق للعلماء في مصر أن فعلوها ولا يمكن تسويغها سوى بالعودة إلى التقاليد الإسلامية، لقد تم عزل الوالي مراراً في مصر ولكن كان يتم ذلك فقط عندما يقرر الديوان - أي المماليك - الأمر لأنهم يملكون قوة الإكراه، وفي هذه المرة أباح العلماء لأنفسهم عزل الوالي انطلاقاً من أرضية دينية تركز على حقهم - حسب الشريعة - في إعلان عصيان الحاكم، وبالإضافة إلى ذلك فقد

(١) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣٢٩.

Douin, op.cit., no.32.

(٢)

(٣) الجبرتي، عجائب...، المجلد ٣، ص ٣٣١.

كان العلماء هم القوة القادرة على جعل هذا العزل نافذاً حيث كانت قوات محمد علي منقسمة على نفسها وغير قادرة على تنفيذ الانقلاب بنجاح وخاصة لأنها كانت متقاعسة نتيجة عدم دفع مخصصاتها المالية، وبذلك كان الناس الذين تسلّحوا بأمر العلماء هم الذين قاتلوا، لقد طاف المنادون في المدن داعين الناس إلى التسليح والاستعداد للقتال استجابة لأوامر السيد عمر مكرم والعلماء^(١) - وبناءً على كلام نقولا الترك فإن هذا الإنجاز يؤكد الدليل على أن الشيوخ هم الذين وضعوا نهاية لحكومة الوالي في القاهرة^(٢). وقد نظم عمر مكرم بمساعدة رئيس طائفة بائعي الخضار، مجموعات خاصة مسلحة لتسلم المواقع التي كانت تخليها قوات محمد علي أولاً بأول «كما كان الحال في اللحظات الأولى للثورة الفرنسية»^(٣). وتلك هي مواصفات الثورة الشعبية التي دعا إليها ونظمها العلماء.

لقد عاش العلماء لحظة نشوة حقيقية كزعماء للبلاد، باعثن في الناس روح المقاومة، ولقد تلقى عمر مكرم مساهمات كبيرة من أغنياء البلد فاشترى السلاح ليمدّ به الجماهير وكان يدفع أجوراً للعمال الحرفيين لقاء تركهم أعمالهم للمشاركة في القتال^(٤)، وقد تمكن من حشد أربعين ألف رجل مسلح، وبالنسبة لسكان القاهرة والمدن الكبرى الأخرى كان عمر مكرم في هذه اللحظات هو الزعيم الأول ويليه في الأهمية محمد علي، وما كتبه التاريخ عن محمد علي أنه كان المنظم الأساسي لتلك الحركة لا يبدو طبيعياً، ويجب أن نتذكر أن عمر مكرم كان قائداً بطريقته الخاصة، وأن محمد علي لم يكن معروفاً تماماً للمصريين وبالتالي كان ضعيفاً في البداية، وسواء نظم الحركة الشعبية أم لم يفعل فهذا لا ينفي دور العلماء الأساسي في تنظيم وإعلان الثورة ولم يكن بإمكان محمد علي النجاح دون مساعدة العلماء إذ كان بإمكانهم الجلوس جانباً وترك الأطراف يتصارعون فيما

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

(٢) Douin, op.cit., Drovetti, no.33.

(٣) Ibid., no.32.

(٤) Ibid., no.37.

(٤)

بينهم، كما كانوا يفعلون دائماً بدلاً من العمل بنشاط لأخذ دور فعال في الأحداث وهو الأمر الذي اختاروه (العلماء) في الواقع.

لقد جاهد محمد علي في سبيل الحصول على موافقة العلماء عليه كوالي إلا أنه لم يكن بإمكانه دفعهم إلى فعل ما فعلوه لو لم يكونوا أنفسهم راغبين بذلك. ولقد تابعوا انقلابهم، فأرسلوا إلى السلطان في استانبول للموافقة على انقلابهم وعلى إعلان محمد علي حاكماً على مصر، وبعد ذلك جاء فرمان الباب العالي بتعيينه والياً ما دام العلماء والشعب قد طالبوا بذلك^(١).

محمد علي

استمر شهر العسل بين محمد علي والعلماء مدة ثلاث سنوات تقريباً، في البداية كان موقفه ضعيفاً وبحاجة إلى دعم العلماء لدفع خطر مكائد المماليك لدى الباب العالي حيث كانوا يحاولون العودة إلى السلطة. ولكنه شعر بثقلته الكاملة للانقلاب ضد العلماء سنة ١٨٠٩، لقد وافقوا عليه والياً على أساس التزامه ببعض الشروط أهمها عدم فرض ضرائب جديدة والتخفيف من الضرائب القديمة غير العادلة، ولكن محمد علي الذي كان بحاجة للنقود أكثر ممن سبقوه لم يكن بإمكانه الوفاء بتلك العهود، وشعر بالضييق من الإصرار الدائم للعلماء على موقفهم ولأنهم عادوا للعب دور الوسيط بين الحاكم والشعب وإلى التدخل عند فرض ضرائب جديدة. ووجد محمد علي نفسه مضطراً إلى استرضاء وتملق العلماء ليتمكن من فرض مثل تلك الضرائب، وكان يستطيع ذلك بدعم من عمر مكرم الذي عاونه في توزيع وجباية الضرائب^(٢). ولكن محمد علي بدأ يفرض الضرائب على العلماء مع أن التقاليد كانت تقضي باستثنائهم، وكان يحاول بذلك تغيير النظم القائمة، وعند ذلك بدأت معارضتهم له، ولكنه لم يسمح بذلك، وبسبب جشعهم وشعورهم بالحاجة إلى

(١) الجبرقي، عجائب...، المجلد ٣، ص ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٢٠، ٢٢.

المحافظة على بقائهم، وترددهم في تحمل المسؤولية تمكن محمد علي من إزاحتهم عن طريقه.

عندما تولى محمد علي الحكم أول مرة، أقسم على أن يحكم بالعدل وبمشورة العلماء^(١) ولكنهم لم يكونوا بعد معتادين على السلطة وخائفين منها، وسرعان ما اتكلوا عليه كلية وعادوا إلى ممارسة دورهم ودورهم في الأزهر وأجبروا عمر مكرم على حل جماعته المسلحة^(٢). وبذلك فقدوا حقهم في ممارسة أي دور خارج إطار تأثيرهم المعنوي.

وفي الدرجة الثانية لم يُظهر العلماء أنهم جبهة موحدة في وجه معارضتهم، ولم يتمكنوا من المحافظة على وحدتهم لمدة طويلة، لقد كانوا يشكلون سابقاً نموذجاً من القوى المتكافئة بقيادة عدة أشخاص (وليس شخصاً واحداً) ممن لهم مناصب هامة ضمن التركيبة الدينية. وكان يعني ذلك نظام قيادة يسمح ببروز قيادات جديدة يمكن أن يخلف بعضها بعضاً، ولكن الظروف الأخيرة حطمت ذلك النموذج، فنتيجة لتتابع الأحداث، اختار الشيخان البكري والسادات عدم لعب أي دور ولم يبق في السلطة سوى شخصين أساسيين هما الشيخ الشرقاوي وعمر مكرم. وبدأ عمر مكرم في الكيد للشرقاوي، وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٠٨ م ذكر الجبري أن الشرقاوي وُضع قيد الإقامة الجبرية في منزله نتيجة لجهود عمر مكرم الذي حمل له الضغينة والمنافسة^(٣). ومن الغريب أن التقارير الفرنسية جاءت على ذكر اعتقال شيخين من الشيوخ الرئيسيين اللذين اتهموا بمحاولة السيطرة على السكان^(٤)، بينما الأسباب التي أوردها الجبري حول الاعتقال تبدو أنها كانت أسباباً مادية. إن اعتقال شيخ الأزهر دون صدور اعتراض من قبل بقية العلماء يعني أن مركز السلطة انتقل من يدي الشيخ إلى يدي النقيب الذي أصبحت سلطته فائقة حسب رأي الجبري. لقد أصبحت

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ١٨.

(٤)

سلطة السيد عمر مكرم أكثر أهمية وتلي أهمية محمد علي في تقرير طبيعة وأولويات السياسة في مصر^(١). وحتى السلطان نفسه لاحظ هذا الموقع المميز، فعندما صد محمد علي الهجوم البريطاني على الاسكندرية سنة ١٨٠٧ م خلع عليه السلطان الهدايا وأرسل معاطف من الفراء إلى الكاهية والدفتردار وعمر مكرم^(٢). إن الإبعاد المؤقت لإمام الأزهر وضّح ضعف العلماء كهيئة، ومحاولة مكرم التقليل من منزلة الشرقاوي كانت في الواقع تسريعاً لسقوطه شخصياً وسقوط طبقة العلماء، حيث أظهر لمحمد علي أن العلماء لم تعد لديهم روح الجماعة شأنهم في الأحداث التي أتت به إلى سدة الحكم، وأدرك محمد علي أن العلماء يمكن تفتيتهم وتبديلهم.

وهكذا، طالما أظهر مكرم أنه حليف مفيد لمحمد علي كان الأخير يعتبره أباه المبجل، ولكن في اللحظة التي أظهر فيها روح المعارضة تمت تنحيته ببساطة. لقد بدأ مكرم يشعر بالقلق تجاه إصلاحات محمد علي الاقتصادية، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما قرر محمد علي سنة ١٨٠٩ م، فرض ضرائب على أراضٍ لم تكن قد فُرضت عليها أي ضريبة من قبل، لقد انزعج العلماء كثيراً من هذه الخطوة، ودعوا لاجتماع لمناقشة ما يمكن عمله لإيقاف محمد علي، أما عمر مكرم فقد سخط على ما اعتبره نقضاً للعهد من ناحية الحاكم وجعل العلماء يُقسمون على معارضة الحاكم حتى إلغاء الضرائب الباهظة.

ولكن في ذلك الوقت كانت سلطة العلماء ضئيلة جداً بعد التنازلات التي قدموها في السنوات السابقة، ونجح محمد علي في اجتذاب بعض العلماء بعيداً عن مكرم ومن هؤلاء الشيخ المهدي والشيخ الدواكلي اللذان لم يحبّا مكرم، وحيث كان العديد من العلماء الآخرين يحسدونه على سلطته فقد صادقت كوكبة من العلماء من بينهم الشرقاوي والسادات على محاولات محمد علي للتخلص من مكرم الذي تم نفيه أخيراً، أما التبريرات التي أعطيت لنفيه فكانت، ويا

(١) الجبرتي، عجائب...، المجلد ٤، ص ٩٣. وأخذت عن ترجمة فرنسية المجلد ٥، ص ٥٦.

(٢) رسالة شكر من محمد علي إلى السلطان مؤرخة في ٤ رجب ١٢٢٢ (٧ سبتمبر ١٨٠٧)، أرشيف الحكومة المصرية (hereafter, E.G.A.)، المعية السنية، دفتر I و ١٢٢٢ - ٨.

للسخرية، مؤامراته ضد الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي وإدخال الناس في سجل الأشراف دون وجه حق^(١).

لقد كان سقوط مكرم يعني أيضاً سقوط العلماء كقوة سياسية. يقول الجبرتي عنه: إنه كان يمثل وحارس العلماء الذين كرهوه بدورهم وغاروا منه، وأدى إبعاده إلى تضاؤل نفوذهم^(٢). ولم يكن الشعب يعلم أن الشيوخ الذين وثق بهم طويلاً واعتقد أنهم حماة من ظلم الحاكم قد أصبحوا مجرد أدوات في يد الحاكم، يحركهم كما يريد^(٣).

وينفي عمر مكرم اختفت آخر محاولات المعارضة لحكم محمد علي، حيث لم يكن لدى العلماء أي شجاعة على أي عمل جديد خاصة بعد النهاية المفاجئة لرجل ذي نفوذ، وبعد أن تمت مصادرة الأوقاف، أصبح العلماء يعتمدون على مساعدة الباشا لتدبير معيشتهم ووصلوا إلى أقصى حالات التبعية والخضوع.

إن الحقيقة القائلة بأن سيطرة محمد علي على العلماء كانت بداية انحسار نفوذهم ليست صحيحة، إذ إنهم كثيراً ما خضعوا في السابق لسلطة حكام أقوىاء لفترة ما يحاولون بعدها استعادة نفوذهم، ولكننا قلنا في بداية مقالتنا هذه إن إدخال التأثيرات الغربية كان سبب انحسار سلطة العلماء وفقدانهم مراكز قوتهم بشكل دائم، وكان محمد علي هو أول من أدخل إلى مصر أكثر هذه التأثيرات فعالية.

لا يتسع المجال هنا للخوض في تفاصيل إصلاحات محمد علي ولكن يمكن القول باختصار، إن محمد علي رأى أنه لا يمكن تحقيق طموحاته إلا بواسطة جيش قوي مبني على النسق الأوروبي. ولهذا الغاية زاد من عائدات الدولة وغير أنظمة الإدارة والتعليم فيها، واستقدم المستشارين الأوروبيين الذين ساعدوه في إعادة تنظيم إدارته وفق النسق الأوروبي، فقسمت الحكومة إلى وزارات،

(١) E.G.A., Ma'iyya Turki, Daftar 16, no. 19, 15, Shaban 1224 (25 Sept. 1809).

(٢) الجبرتي، عجائب...، المجلد ٤، ص ١٠١، والترجمة الفرنسية، المجلد ٨، ص ٢٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٤. والترجمة الفرنسية، المجلد ٩، ص ٨٠.

وحُكمت البلاد بواسطة إدارات محلية فرعية لكل منها موظفوها المدنيون المسؤولون أمام السلطة المركزية. وأدخل كذلك نظام التعليم الأوروبي ليزود جيشه بالمعلمين وإدارته بالموظفين، وأخيراً أصبح هو وحده مالك الأرض والتاجر والصانع في البلاد.

بالرغم من أن بعض هذه الإصلاحات كان مفيداً من غير شك، فإن معظمها كان له نتائج عكسية على الحياة الاجتماعية التقليدية. فالحاجة إلى جيش كانت تعني وجود نظام تجنيد إجباري واسع النطاق مما حرم المناطق الريفية من رجالها الأقوياء العاملين بالزراعة. وإصلاحاته الزراعية أدت إلى تركيز ملكية الأرض تحت أيدي عدد قليل من الملاك وجعلت الفلاح يعيش في ظروف سيئة مثل تلك التي سادت في عصر المماليك، وقد شجعت سياسته الاقتصادية على تدخل التجارة الأوروبية مما أضر الصناعات المحلية واختفت معظم الصناعات الكبيرة التي أقامها، وأخيراً، أدت سياسته إلى تدمير طبقة التجار عندما أصبح هو الاحتكاري الأوحـد في البلاد.

إن النموذج الاجتماعي للمجموعات السكانية المتلاحمة والمنظمة داخلياً في استقلال عن السلطة المركزية بدأ في التنحي جانباً ليحل مكانه نموذج اجتماعي جديد اعتمد على تركيبة هرمية تحددها السلطة وتخدم مصالحها المركزية. وانحسر النموذج الإسلامي أمام تقدم الطراز الغربي، هذا الطراز الذي استحدث طبقة إدارية لا يوجهها حكم التقاليد، ومع أنها كانت قليلة الفعالية وفاسدة ومُستبدة، إلا أنها أصبحت نخبة إجتماعية جديدة، وشكلت نواة طبقة من رسمي الحكومة الذين كان من الطبيعي أن يسودوا نتيجة الإصلاحات التعليمية المستحدثة وهي الطبقة التي كان من الطبيعي أيضاً أن تحل محلّ العلماء كنخبة مثقفة في البلاد.

ولكن بالرغم من أن محمد علي تمكن من شن هجمة قاسية على العلماء، فإنه لم يتمكن من تجاهل التقاليد كلية، لأنه كان في النهاية حاكماً مسلماً، وهكذا فقد أرسى القواعد الأساسية لنظام سيصبح مألوفاً لمن يخلفه، فبينما يكنّ الاحترام للعلماء كطبقة دينية، فإنه في الوقت ذاته أعطاهم فرصاً ضئيلة جداً

للمشاركة في الحكم ودفعهم إلى مرتبة ثانوية. لقد حلَّ محمد علي الأوقاف، وأمر بقراءة البخاري^(١). وكرَّم العلماء في أيام الأعياد، وقَدَّم لهم الهدايا^(٢)، وزاد من مواردهم المالية عندما طلبوا ذلك^(٣) وجعلهم أعضاء في ديوانه^(٤) ولم يتدخل علناً في شؤون الأزهر. لقد استخدمهم كتلاميذ ومدرسين في مدارس الجديدة، بل واستخدمهم كرجال إعلام. لقد أرخ لمحمد علي الشيخ خليل الرجبي باقتراح من شيخ الأزهر وأنجز الشيخ العروسي كتاباً مائلاً خصص أحد فصوله السبعة للحديث عن فوائد التجنيد الإجباري مؤيداً كلامه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية لتبيان أن أجر المقاتل هو الجنة^(٥). ولكن تدريجياً تم بناء الآلية التي أقصت العلماء عن قاعدتهم ووضعتهم في خلفية الصورة كعنصر رجعي. لقد بدأ محمد علي ثورة اجتماعية. وبذلك أقفل القناة الوحيدة للمعارضة ضد الاستبداد الذي عرفته مصر لعدة قرون، لقد اختفت الجسور التي كانت تصل الحاكم بالمحكومين ولم يكن هنالك بديل لها لعدة عقود حتى قامت طبقة اجتماعية ثالثة مرة جديدة. ربما وجد العلماء مجموعة جديدة من الحلفاء للعمل معها، ولكن الإصلاحات الغريبة الطراز منعت ذلك، لأن المجموعات الجديدة لم تكن تكثرث بالتقاليد كثيراً، بل كانت على وعي ضئيل بها، حيث كان الكثير من أعضائها من المهاجرين الأتراك أو الأوروبيين الجدد، ولم يقدِّروا العلماء كما كان يحكى عن المماليك. ولم يعد المجتمع منقسماً إلى مجموعة عسكرية وأخرى دينية بل أصبح يتكون من موظفي الدولة والإداريين الذين شكلوا نخبة جديدة لديها معرفة أكثر بنهج الحكم وسلطة أكثر من سلطة العلماء. ومع أن الأزهر كان يسهم في توفير الخامات الأساسية التي شكلت النخبة المثقفة الجديدة، إلا أن هؤلاء المثقفين نشأوا بعيداً عن التقليديين بسبب تدريبهم الغربي، والعلماء السابقون مثل رفاة رافع الطهطاوي، اعتقدوا أن على الأزهر أن يركز على

E.G.A. Ma'iyya Turki, Daftar 18, no. 768.

(١)

(٢) المصدر نفسه، ٢١، رقم ٣٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢١، رقم ٨٥.

(٤) المصدر نفسه، ١، رقم ١١.

(٥) خليل ب. أحمد الرجبي، تاريخ محمد علي، مخطوط غير منشور (مصر، دار الكتب المصرية).

تعليم الدين واللغة العربية ويترك فروع التعليم الأخرى إلى أولئك الأكثر تأهيلاً، بل إن بعض الأئمة مثل الشيخ حسن العطار أحسوا بريح التغيير القوية ولمحوا بأن الأزهر يجب أن يطور نفسه في المستقبل.

لقد فقد العلماء مكانتهم كطبقة مثقفة عليا، وبدلاً من محاولة تطوير أنفسهم ومسايرة التيار الذي كان جديداً وغير معروف لهم، رفضوا المشاركة فيه، لقد خبأوا أنفسهم خلف تقاليدهم وكرسوا جهودهم للمهمة الشاقة في الحفاظ على كيانهم. وأصبح التغيير بالنسبة لهم بدعة تستحق التوبيخ، وقد ساهم جهودهم هذا في إعاقة التطور الثقافي للأزهر، وأعطى مبرراً لاتهامهم بالتخلف كما حصل لاحقاً.

وخلال القرن التاسع عشر تم استبدال العلماء كمدرسين ومعلمين، وفقدوا مناصبهم كقضاة ومشرعين، ومع ذلك فقد حافظوا على الكثير من تأثيرهم على الناس والعناصر المتدينة في المجتمع الذين يشكلون الغالبية العظمى، ولكنها كانت الغالبية المهملة سياسياً مع أن الحكام الطغاة استخدموها عندما رغبوا في التظاهر بأنهم من أنصار الحرية، وقد تابع هؤلاء إظهار مشورتهم للعلماء كوسيلة لتشريع خطواتهم الجديدة أو غير المرغوبة جماهيرياً. وكان الخديوي إسماعيل ذا مقدرة على كسب ود العلماء، حتى أنه طلب من الشيخ البكري إعداد اللائحة الوطنية التي كان المطلوب توقيعها من العلماء والأعيان ليثبت لأوروبا أنه كان مدعوماً من الشعب في مصر. وكذلك العربيون الذين شعروا بحاجتهم إلى موافقة العلماء لإتمام مهمة خلع توفيق، ولكن العلماء لم يكن في مقدورهم استعادة السلطة التي كانت لهم أيام المماليك. ومع أن هبوط سلطتهم تسارع على يد حكم أسرة محمد علي، إلا أنها كانت نتيجة حتمية للتيار الغربي، ولو كان الأمر غير ذلك لكان بإمكانهم استعادة موقعهم في عهد عباس، ولكن سلطتهم اعتمدت على نموذج اجتماعي إسلامي ومنذ أن زال ذاك النموذج كان لا بد لوضعهم أن يتغير.

وهكذا عندما تسرّب التعليم والقانون والعدالة من يد العلماء، وخبا نفوذهم السياسي، وكذلك عندما حلت القومية مكان مفهوم الأمة الإسلامية مرجعاً للولاء، تضاعف النفوذ السياسي للدين. وعندما قَصَرَ المسلم الحديث دور الدين على الناحية الروحية واعترف بأن المجتمع يمكن أن يحكم بالقانون المدني انتهى اعتماده على العلماء إلا كمعلمين للدين، وتضاعف تأثيرهم عليه في المسائل غير الدينية.